المثنى

ألف المثنى ونونه - واختلاف القبائل العربية فيهما:

المثنى: عند عامة العرب: يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء وعليه قوله تعالى ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ**﴾ [الحج: ١٩] وقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿**وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ**﴾ [الرحمن: ٥٢].

لكنه قد أثر عن قبائل أخرى استعمالاتٌ خاصة تتعلق بألف هذا المثنى ونونه:

ففيما يتعلق بالألف: فإنا نراهم قد سلكوا في شأنها طريقين:

١- بعض القبائل العربية من لا يخاف اللبس بين المثنى في حالة الرفع أو النصب أو الجر بل يلزمون المثنى الألف في الأحوال الثلاثة المذكورة[١] ويستدل على الإعراب حينئذ بالعامل قبل المقصور. قال الشاعر:

هيَّاكَ إنَّ يَمِينِى الشَّعْشَعان خَبُّ الْفُؤَادِ مَائِلُ الْيَدَانِ(*)

والوجه اليدين[٢].

قال آخر:

أَعْرِفُ مِنْهَا الْجِيْدَ والْعَيْنَانَا وَمَنْخَرَيْنِ أَشْبَهَا ظَبْيَانَا(**)

وجعل منه قراءة بعض السبعة: ﴿**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ**﴾ [طه: ٦٣][٣] بتشديد نون «إن» وألف ونون خفيفة في «هذان»[٤].

---

(١) الخزانة ٣: ٣٣٧.

(٢) توجيه أبيات ملغزة الإعراب ٢٧٨.

(٣) ينظر في ذلك: المغني ١: ٣٨.

(٤) الكشف ٢: ٩٩، شرح الشاطبية ٢٤٧، النشر، ٣٢١. حجة القراءات ٤٥٤ وما بعدها، غيث النفع المطبوع على السراج ٢٩٠.

(*) البيت لم ينسب إلى أحد. والشعشعان: الطويل الحسن الخفيف اللحم. والخب: بالفتح الخداع. والفؤاد: القلب. وقيل بل هو غشاؤه. ومائل: من الميل يعيره بذلك.

والشاهد في اليدان: حيث ألزم المثنى الألف وذلك لغة.

(**) نسب البيت لرجل من ضبة هلك منذ أكثر من مائة سنة، والجيد: العنق ومنخر: خرق الأنف -وأصله موضع النخير وهو الصوت من الأنف -وظبيان: اسم رجل لا مثنى ظبي. والشاهد: في عينانا حيث ألزم الشاعر العين في المثنى الألف في النصب.

وقد عُزِيَتْ هذه اللغة إلى كنانة حكي ذلك عن أبي الخطاب، ولبني الحارث بن كعب وبني الجهيم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وأهل تلك الناحية حكي ذلك عن الكسائي، وهمدان ومزدادة ومراد وعذرة وبني العنبر وبعض بني سليم[1].

وإلى ذلك التخريج في قراءة الآية السابقة مال أبو الخطاب وتابعه أبو عبيدة[2]، واختاره ابن مالك.

وقال الزجاج: وقال النحويون القدماء: ههنا هاء مضمرة والمعنى: إنه هذان لساحران، كما تقول: إنه زيد منطلق، ثم تقول: إن زيد منطلق[3].

وقال المبرد: أحسن ما قيل في هذا أن يجعل «إن» بمعنى «نعم» المعنى: نعم هذان لساحران، فيكون ابتداء وخبرًا، وإليه مال الزجاج أيضًا.

وَرُدَّ بأنا لا نسلم أن الهاء للسكت بل هي ضمير منصوب بها والخبر محذوف أي أنه كذلك. وبأن مجيء «إن» بمعنى «نعم» شاذ. حتى قيل: إنه لم يثبت، كما أن اللام لا تدخل في خبر المبتدأ[4]، وأجيب عن ذلك: بأن من العرب من يدخل لام التوكيد في خبر المبتدأ فيقول: زيد لأَخوك[5]. فعلى هذا تكون زائدة، وليست للابتداء، أو بأنها داخلة على مبتدأ محذوف أى لهما ساحران أو بأنها دخلت بعد «إن» هذه لشبهها بأن المؤكدة لفظًا.

وَيُضْعِفُ الأولَ أن زيادة اللام في الخبر خاصةٌ بالشعر، وَوَجْهُ الكلام في المثال: لأَخوك زيد.

وكذلك كان وجه الكلام في الآية أن حملت «إن» على معنى «نعم»: إن هذان لساحران كما تقول نعم لهذان ساحران[6].

---

(١) شرح المفصل ١: ١٢٦، شرح الكافية ٢: ١٤١، الهمع: ١: ٢١، ٤٠. الخزانة ٣: ٣٣٦، توجيه أبيات ملغزة الإعراب ٢٧٨، إعراب مشكل القرآن ٢: ٦٩.

(٢) حجة القراءات ٤٥٥.

(٣) حجة القراءات ٤٥٥، المغني ١: ٣٨.

(٤) المغني ١: ٣٨، وشذور الذهب ٤٩.

(٥) حجة القراءات ٤٥٥.

(٦) إعراب مشكل القرآن ٢: ٧٠.

كما أن الجمع بين لام التوكيد وحذف المبتدأ كالجمع بين متنافيين.

وقيل: اسم «إن» ضمير الشأن، وهذا أيضًا ضعيف لأن الموضوع لتقوية الكلام لا يناسبُه الحذف، والمسموع من حذفه شاذ إلا في باب «أن» المفتوحة إذا خففت فاستسهلوه لوروده في كلام بني على التخفيف فخذف تبعًا لحذف النون، ولأنه لو ذكر لوجب التشديد إذ الضمائر ترد الأشياءَ إلى أصولها ألا ترى أن من يقول: لد، ولم يك، والله يقول: لدنك ولم يكنه وبك لأفعلن ثم ترد أشكال دخول اللام[1].

وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى «أجل» فيكون المعنى -والله أعلم: فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا: أجل، تصديقًا من بعضهم لبعض ثم قالوا: هذان لساحران[2].

وقيل: إن المبهَم لما لم يظهرْ فيه إعرابٌ في الواحد ولا في الجمع جَرَتْ في التثنية على ذلك فأتي بالألف على كل حال، أو أن هذه الألف ألف هذا لا ألف المثنى[3].

ولعل القول بأن هذه القراءة قد جاءت على لهجة كانت معروفة لقوم كثير من العرب -كما قدمنا- هو أسلم تلك التخاريج جميعًا.

٢- وقد سبق أن من العرب من يعمد إلى قلب كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفا حتى ياء المثنى أيضًا.

حكى أبو زيد: أخذت الدرهمان، واشتريت الثوبان، والسلام علاكم.

قال المفضل: وأنشدني أبو الغول لبعض أهل اليمن:

أَيُّ قَلُوصٍ رَاكِبٍ تَرَاهَا ... طَارُوا عَلَيْهِن فَشُلْ عَلاَهَا

واشْدُدْ بِمَتْنَيْ حَقَبٍ حِقْوَاهَا ... نَاجِيَةً وَنَاجِيًا أَبَاهَا

(١) المغني ١: ٣٨.
(٢) حجة القراءات ٤٥٥.
(٣) إعراب مشكل القرآن ٢: ٧٠، وانظر شذور الذهب لابن هشام: ٤٩٠.
قال: وقد اختار هذا القول الإمام العلامة ابن تيمية -رحمه الله- وزعم أن بناء المثنى إذا كان مفرده مبنيًا أفصح من إعرابه.

قال أبو زيد: وهذه الأبيات جاءت على لغتهم.

وأنشدوا عليها قول القائل:

تَزَوَّدَ مِـنَّا بَـيْنَ أُذْنَـاهُ ضَـــــرْبَةً دَعَـتْهُ إِلَى هَابِيْ التُّـرَابِ عَقِـيْمِ(*)

وقال آخر:

فَـأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَـاعِ وَلَوْ يَرَى مَسَاغًـا لِنَابَاهُ الشُّجَاعِ لَصَـمَّمَا(**)

وقد نُسِبَتْ هذه اللغة إلى بني الحارث بن كعب من قحطان وآخرين(١).

وبتأملنا فيمن نسبت إليه هذه اللغة من قبائل الـعرب نجد اتساع الرقعة الجغرافية التي شملتها هذه الظاهـرة اللهجية بحيث لا يمكن قصرها على قـبائل اليمن فقط، فإذا وجـدنا نسبتَـها إلى بعض قبـائل يمنية كبني الحـارث بن كعب وزبيد وخـثعم وهمدان ومراد وبعض بطونهـا كعذرة نجد نسبتَـها أيضًا إلى قبائلَ عدنانيـة شمالية ككنانة وبكر بن وائل وبطونٍ من ربيعة وبعض بني سليم وبـني العنبر وبنى الهجيم وهم من قبائل شرقي الجزيرة العربية ووسطها.

ولا يمكن تفسير هذا الظاهرة إلا بأحد أمرين:

١- أن القول بأن هذه اللغةَ كانت قليلةً الشيوع غيـرُ صحيح إذا أخذنا في الحسبان تلك القبائلَ التي عزيت إليها هذه الظاهرة اللهجية لاسيما وأن أصحابَها قبائلُ قحطانية وعدنانية تناثرتْ منازلُها ولا ارتباط بينهم ظاهريًا لا من جهة النسب أو غيره.

(*) البيت لهوبر الحارثي. وقد ورد في النوادر ٥٨، البحر: ٦: ٢٥٥. الكشف ٢: ٩٩.

وتزود: اتخذ له زادًا، هذا أصله. وهابي التراب: ما ارتفع منه ودق.

وعقيم ههنا: يريد به الذي لا ينفع ولا يرد خيرًا. يقول: تزود منا ضربة بين أذنيه ألقته ميتًا.

والشاهد: في أذناه: حيث ألزم المثنى الألف في الأحوال الثلاثة.

(**) البيت قد نسب إلى المتلمس.

وأطرق: إذا سكت فلم يتكلم وأرخى عـينيه ينظر إلى الأرض، والشـجاع: الشـديد ساعـة البأس -هذا أصله- ومساغًا: مدخلاً وطريقًا. ونابَاه: مثنى ناب وهي الأسنان التي خلف الرباعية.

والشجاع الثانى: قد يقصد به نوعًا من الحـيات. وصممما: أي نيب وعض فلم يرسل ما عض والشاهد: إلزام ناباه الألف في الجر.

(١) توجيه أبيات ملغزة الإعراب ٢٧٨ وما بعدها.

شذور الذهب ٤٧.

٢- وربما كان أصحاب هذه اللهجة قبائلَ وثَّقَتْ بينهم عرى البداوة وتشابهت ظروف بيئتهم الصحراوية فدعتهم الرغبة في الانسجام والتجانس الصوتي إلى قلب الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفًا، ولا ريب في أن إجراء الحركات على نسق صوتي واحد فيه اقتصاد للجهد العضلي ولِيكونَ عملُ اللسان من وجه فتقريب الصوت إذن من ناحية الفتح أيسر على اللسان من الانتقال به إلى صوت آخر. وبالتحقيق وجد أن هذا العمل قد شاع نظيره بين القبائل البدوية في جانب الإمالة حيث جنحت إلى إشمام بعض الأصوات أصوات بعضها الآخر فأشمت الفتحةَ كسرةً وضمةً والكسرةَ ضمةً وفتحةً.

فلا نستبعد -والحالة هذه- أن يكون من نسبت إليه هذه اللهجة قد دُفِعَ إليها نتيجةً لواقع البيئة التي فَرَضتْ عليهم طابعًا متشابهًا من عادات النطق فتشكلت أعضاؤهم النطقية على نسق فيه من التماثل ما قرب العدناني من القحطاني والشمالي والجنوبي والشرقي.

وقد أنكر أبو العباس المبرد لزومَ المثنى وما ألحق به الألف رفعًا ونصبًا وجرًا[١].

ولا وجه لإنكاره ذاك فقد نقلها كثيرٌ من أئمة اللغة والنحو، وفي أكثر من موضع من مؤلفاتهم، ونسبوها إلى قبائلَ بأعيانها.

ولاشك في أن من سمع حجة على من لم يسمع، إضافة إلى ورودها في كثير من كلام العرب شعرًا ونثرًا.

وقد قرأ بها عدد كبير من أئمة القراءة في قوله تعالى: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ**﴾ -كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق- وهم نقلةُ كتاب الله والمتلقون له، وقراءاتُهم خيرُ ما يمثل واقعَ لهجات قبائلهم حينئذ في أدق خصائصها بل يرى بعض الباحثين المحدثين[٢] أن إلزام المثنى الألف والنون أسلوب في الكلام لا علاقة له بحال من أحوال الإعراب، فهي تمثل لغة قسم كبير من العرب، ووجدت في كلامهم ممثلة للهجات الإقليمية، ولهذا يرجِّح أن الياء والنون اللتين تلحقان المثنى في حالتي

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني ١: ٧٩.

(٢) انظر فقه اللغة المقارن -إبراهيم السمرائي: ٨٦ وما بعدها بتصرف.

النصب والخفض إنما جاءت نتيجةَ تطور صوتي لحق الألفَ بالإمالة التي كانت شائعة في منطق معظم قبائل العرب فهي على هذا لغة لجماعة من الناس وفي جهات إقليمية معينة، ثم لما درجت العربية في طريقها التطوري وآن لها أن تنسجم في لغة هي لغة القرآن والحديث اختص الاستعمال المثنى بالألف لحالة الرفع، والمثنى بالياء لحال النصب والجر، وفي ظني أن الزجاج قد سبقه إلى هذا الرأي[1].

وكما وقع الاختلافُ بين القبائل العربية حول إعراب المثنى بالحركات المقدرة على الألف أو إعرابه المشهور بالألف رفعًا وبالياء نصبًا وجرًا وقع بينهم الاختلافُ حول حركة نون المثنى الواقعة بعد الألف. وهل هي تختص بحالة لزوم المثنى الألف في الأحوال كلها أو تشمل الياء أيضًا؟ قولان: فقد ذهب بعضُهم إلى أن فتحها إنما هو خاص بالياء، وحكي ذلك عن البغداديين ومن نهج نهجَهم، وهي لغة لبني أسد[2].

وذهب غيرهم إلى أن ذلك خاص بحالة الخفض والنصب فقط في لغة من ألزم المثنى الألف في جميع الأحوال وقد قال به ابن عصفور في كتاب الضرائر[3]. والذي عليه عامَّةُ النحويين أن ذلك شامل للألف والياء معًا، فمن الياء قول حميد بن ثور:

عَلَى أَحْوَذَيَّيْنَ اسْتَقَلَّتْ عَشِيَّةً فَمَا هِيَ إلاَّ لُمْحَةٌ وَتَغِيْبُ[*]

---

(١) أورد الزجاج في إعراب القرآن حول كلامه عن الآية: ﴿**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ**﴾ في النوع ٨٦: وهو ما جاء في التنزيل وقد رفض الأصل واستعمل ما هو فرع «ما يشبه هذا الكلام وربما الدكتور إبراهيم السمرائي قد أخذه عنه وإن لم يشر إلى ذلك، فقد قال: . . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ**﴾ الأصل في ألف التثنية أن تكون كعصا ورحا في الرفع والنصب والجر على صورة واحدة لأن الحركة فيها مقدرة كما هي في ألف «عصا ورحا» ولكنه جاء الاستعمال على قلبها ياء في النصب والجر حرصًا على البيان إذ لم يكن هناك ما في المفرد من البيان ألا تراك تقول: ضربت موسى العاقل عيسى الأديب، فيتبين الرفع بالصفة بعد الفاعل ونصبها بعد المفعول وهذا المعنى لا يتأتى بالتثنية لو قلت: ضرب الزيدان العاقلان العمران القائمان لم تتغير الصفة فجاء قوله تعالى: ﴿**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ**﴾ على الأصل الذي ينبغي أن يكون عليهم. . إعراب القرآن ٣: ٩٣٣. تحقيق إبراهيم الإبياري –ط القاهرة الهيئة العامة لشئون المطابع المصرية.

(٢) شرح الفصل ٤: ١٤١.

(٣) ضرائر الشعر ٢١٧– الخزانة ٣: ٣٣٨.

(*) البيت لحميد بن ثور الصحابي الهلالي أحد الشعراء المجيدين واشتهر بوصف القطاة– ديوانه: ٥٥، =

ومن الألف ما قاله أبو زيد:

أنشدني المفضل لرجل من بني ضبة:

أَعْـرِفُ مِنْهَـا الجِـيْـدَ وَالْعَـيْنَانَا وَمَنْخَـرَيْنِ أَشْـبَـهَـا ظَبْـيَـانَا

ففتح النون في موضع الرفع.

٣- وحكى الشيباني وغيره من أئمة اللغة أن بعض العرب يضم نون التثنية مع الألف خاصة وعليه قول بعض العرب: هما خليلانُ، وهذان الزيدانُ، والعمرانُ.. ومنه قراءة بعضهم «تُرْزَقَانُهُ في الفعل، وقوله:

يَا أَبَتَـا أَرَّقَنِـي القِـذَّانُ فَـالنَّـوْمُ لاَ تَأْلَفُـه العَـيْنَانُ(*)

قالوا: وهو من الشذوذ والقلة بحيث لا يقاس عليه(١).

ومن خلال تتبعي لبعض المصادر النحوية رأينا أنها تفترق في عزو ظاهرة فتح نون المثنى إلى فرقتين:

١- الفرقة الأولى: تنسب فتح نون المثنى وما ألحق به مع الياء إلى بني أسد - على ما أسلفنا- روي ذلك عن الفراء والكسائي، فقد نقل خالد الأزهري عن الفراء: أنها لغة بني أسد(٢)، وكذا فعل العيني في شرح شواهده حين قال:... إن فتح نون التثنية لغة بنى أسد وليس بضرورة(٣).

= ويروى فتغيب. والأحوذي: الخفيف في المشي أو الراعي المتشمر للرعاية العنابط لما ولي.
والمراد هنا: جناحا القطاة، يصفها بالخفة. واستقلت: استبدت. وعشية: آخر النهار. واللمحة: النظرة بالعجلة. والشاهد في قوله: على أحوديين: حيث فتح نون المثنى والقياس كسرها وهي لغة.

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني ١: ٩٠، شرح المفصل ٤: ١٤٣.
شرح الكافية ٢: ١٧٣.

(٢) شرح التصريح ١: ٧٨. (٣) شواهد العيني على هامش الخزانة ١: ١٨٣.

(*) القذان: بكسر القاف وتشديد الذال: البراغيث، واحدة قذة بضم القاف، ومنهم من يقول: إنه بالدال المهملة. والبيت أنشده أبو عمرو الزاهد في كتاب اليواقيت.
والشاهد: ضم نون -القذان... والعينان. وذلك بإعرابه إعراب المفردات، ولهذا رفع النون فيهما، وهي لغة حكاها الشيباني.

٢- الفرقة الثانية: رَأَتْ أن فتح نون المثنى مع الألف قد جاء أيضًا في لغة أولئك الذين ألزموا المثنى صورة واحدة رفعًا ونصبًا وجرًا[١].

وغير بعيد أن يكون هذا الفتح قد نسب إلى تلك القبائل التي تجري ألف المثنى مجرى ألف القصر في الأحوال الثلاثة دون تغيير -وقد سبق ذكر أسماء قبائلهم- وبها قرئ في الشواذ أيضًا في قوله تعالى: ﴿**أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ**﴾ [الأحقاف: ١٧]. . . «حيت قرئت» «أَتَعِدَانِنِي» بفتح نون الرفع مع الألف[٢] في الفعل رغبةً في التخفيف، وكذلك يُفعل في المثنى مع الأسماء.

وما سبق قراءةُ كثير من القراء كالحسن وشيبة وأبي جعفر وعبد الوارث والجحدري وهشام عن ابن عامر، وحكاها أبو حاتم عن نافع، ورواها سلام ومحبوب عن ابن كثير[٣].

كأنهم فروا من الكسرتين والياء إلى الفتح طلبًا للتخفيف ففتحوا، قيل: وهي لغة شاذة[٤].

****

(١) الضرائر الشعرية ٢١٨. الخزانة ٣: ٣٣٨.

(٢) شرح الكافية ٢: ١٧٣.

(٣) البحر ٨: ٦٢، النشر ١: ٢٠٣.

(٤) إملاء ما مَنَّ به الرحمن ٢: ٢٣٤، الشواذ ١٣٩.

obeikandl.com